من مصادر السنة

مكارم الأخلاق

للإمام الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ

*

تحقيق
الدكتور
فاروق حمادة

*

طبع على نفقة
الرئاسة العامة للإفتاء والبحوث العلمية
والدعوة والنشر بالمملكة العربية السعودية

الحقوق محفوظة للرئاسة

أشرف على الطباعة
المكتب التعاوني السعودي بالمغرب

يوزع مجانا

الطبعة الأولى 1400 — 1980

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة — وتنويه

تسعَى الرئاسة العامة لادارة الافتاء والبحوث العلمية والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية بقيادة سماحة العلامة الجليل الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى نشر التراث الاسلامي وتيسير سبله وترسيخ دعائمه بكل الوسائل المتاحة ، لا تدخر في ذلك وسعا ، ولا يثنيها عن هذا الهدف الاسمَى أي صعاب ، والكتاب الذي تقوم هذه الرئاسة بطبعه وتوزيعه في المغرب العربي (مكارم الأخلاق) — للامام الطبراني تحقيق الدكتور فاروق حمادة ، هو واحد من سلسلة ذهبية عملت على نشرها وتوزيعها على كل من يهمه التعرف على رسالة الاسلام — نقية من الشوائب ، صافية من كل دخيل .

وهذا المؤلف على صغر حجمه يضم نفائس عطرة مما ثبت من أحاديث الرسول ﷺ في مكارم الأخلاق الشاملة المتنوعة ، والتي جاءت الديانات من قبل حاثةً عليها مبرزة لفضلها حيث تشكل الأخلاق في نظر حكماء الأمم على مسار التاريخ أقوَى دعائم بناء الحضارات الانسانية ، بل ان عملية استمرار هذا البناء مرهون باتصال هذه المكارم وارتقائها .

وإذا كان شأن الأخلاق بهذا القدر من المكانة والسمو فكيف بها إذا كانت مدعومة برسالة السماء وعن طريق محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء .

وأكملهم قدرا ، وأرفعهم منزلة عند ربه والذي شهد الله له — بأنه على خلق عظيم ، وقال ﷺ عن نفسه مؤكدا القيمة الخالدة لمجموعة الصفات المثلى التي طالما ربطت المجتمعات على مر العصور برباط من الانسانية والتقويم وبوشائج من العاطفة والرحمة (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

ومن هنا فان عناية رئاسة الافتاء والبحوث والدعوة في المملكة السعودية مهبط الوحي — ومنطلق النور الالهي — بمثل هذا الكتاب بما يشتمل عليه من أحاديث في مكارم الأخلاق — تأتي منسجمة كل الانسجام مع الأسس التي شيدت عليها هذه الرئاسة الجليلة .

فلسماحة رئيسها العام أصدق التقدير وأخلص الدعاء على هذه المبادرة المفعمة بروح الاسلام . ولفضيلة الأستاذ الدكتور فاروق حمادة أجل الاحترام ، على الجهد الطيب الذي قام به في تخريج الأحاديث وتبويبها وشرح مفرداتها ، وابرازها بهذا الشكل المفيد لأجيالنا الحاضرة واللاحقة .

وكلمة للقارئ الكريم في الختام — تأمَّلْ بعناية خاصة هذه الباقة المشرقة بالالهام ، والمعطرة برائحة النبوة الزاكية ، فلتكن ذخيرتك وزادك ، ومصدر فكرك وانطلاقك إلى العالم الرحب حتّى لا تزل بك قدم ، أو يتيه بك سبيل .

ولنردد مع شاعرنا العربي :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولنكرر التحية لكل من سار في درب الرشاد والهدي النبوي العظيم .

الرباط في : 1400/12/22هـ
الملحق الثقافي السعودي بالمغرب
محمد بن ابراهيم بن عبد السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

1

إنَّ الحمد للَّه ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وبعد :

1 — فإن هذا الكتاب — مكارم الأخلاق[1] — قبس من مشكاة النبوة التي أضاء نورها العالمين ، ووضَّحت طريق الهدَى والخير للسالكين ، أقدِّمه اليوم ، وأمتنا المتأرجحة لمَّا تستقر بعد على صخرة الدورة الحضارية المقبلة التي نرجوا أن تكون لأمتنا ، ولم تشق طريقها بعد لبناء حضارة جديدة تستفيد في بنائها هذا من مادِّية الحضارة المعاصرة ، وبفكرتها الخاصة ، وتصورها المستقلّ ؛ إيماناً مني بأن الأمة أي أمة كانت ، لا تقوم لها قائمة ولا تسمو لبناء حضارة مطبوعة بطابعها إلا إذا كانت لديها فكرة متكاملة قادرة على وضع الأسس الحضارية ، تنبثق هذه الفكرة من روح الأمة ، وتشمل تصوراتها ، وتلبي تطلعاتها !!! .

---

(1) المكارم : جمع مكرمة — بضم الراء — اسم من الكرم ، وهو الفعل الحميد ، ولا يقال للرجل كريم ، حتى يظهر منه ذلك ، وكل فائق في بابه يقال له : كريم .
والأخلاق جمع خلُق : وهو القوى والسجايا التي تدرك بالبصيرة ، وليس بالبصر الذي يدرك به الخَلْق . وقيل : هي أوصاف الانسان التي يعامل بها غيره ، وهي إما محمودة أو مذمومة .. !

وإن لكل فكرة روحا . هذه الروح هي التي تحدد اتجاه الحضارة وتضع أسبقيات القيم وترسم الآفاق . وهي تسري في كل جزئية من جزئيات الحضارة ومعطياتها المادية والمعنوية . فبعض الحضارات تكون روح القوة هي التي تهيمن على الفكرة فتتجلى هذه الروح في كل شيء تلاحظه في المجتمع ، من البناء إلى اللباس ، إلى الانتاج إلى العلاقات التي تحكم التعامل بين الأفراد والجماعات ... وتكون نهاية هذه الحضارة بضربة القوة المدمرة وقد لا تكون من خارج المجتمع ، بل تكون بقوّته التي بناها ، وأعدها وعاش تحت وطأتها .. ! !

وبعض الحضارات تهيمن عليها الروح الجمالية فتطبع الحضارة والمجتمع وكل شيء فيهما بطابع الجمال ، ويصبح تحقيق هذا المطلب وابراز هذا الروح مقدماً على كل شيء ، ويترك بصماته على شؤون الحياة الصناعية ، والاقتصادية والاجتماعية ، وأيّ جانب نظرت إليه لمست نزعة الجمالية ماثلة وهي محور العمل ! ! وتكون نهاية هذه الحضارة بفضيحة حمراء يفقد الانسان فيها قدرة التفكير بعقله ، وتسيطر عليه غرائزه وشهواته ، فيحكم القبضة على المجتمع المرأة التي توجهها وتملي عليها تصرفاتها دوافعٌ الأنوثة المرهفة الهوجاء ! !

وبعض الحضارات يسري في كيانها روح الأخلاق فتجد كل شيء فيها تحكمه الضوابط الأخلاقية ، وتلفه مسحة منها ! !

وهذا الروح هو الذي أراده الله عز وجل أن يكون عماد الحضارة الاسلامية ، لأنه صمام الأمان لبقاء الحضارة وامتدادها ، وعامل الاطمئنان عند الفرد في إطار هذه الحضارة .

لقد عرف الانسان من خلال التاريخ إحدَى وعشرين حضارة قد

قامت على وجه الأرض وما لم يعرفه ربما يكون أكثر ! ! وبحث الدارسون والمؤرخون عناصر القوة في الأمة ومكامن الضعف فيها ؛ وظهر لهم — وهذا أمر حق — أن قوة الأمة وإمكان استمرارها في أداء دورها الحضاري هو قوة أخلاقها ، وليس كثرة نابغيها ، ووفرة منتجاتها ، بل الملاحظ أن نجم الأمة الحضاري يأفل ومكانتها تنهار ، وهي أوفر ما تكون انتاجاً وعطاءً في عالم المادة ، وأكثر ما تكون نوابغ وعلماء .

إن الذكاء يساعد على البحث في أسرار الطبيعة والانتفاع بقواها ، ولكن الأخلاق هي التي تُحْكِمُ هذه القوة وتعلِّم السير في الحياة بنجاح .

يقول غوستاف لوبون : (ونحن إذا بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم وهي التي حفظ لنا التاريخ خبرها كالفرس والرومان وغيرهم ، وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيراً نشأ عن انحطاط أخلاقها ، ولست أرَى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها[2]) .

هذه الروح الخُلُقية هي منحة السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الرسالات عندما تولد الحضارات ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض كما يشير القرآن الكريم لذلك بقوله « وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ، ولكنَّ الله ألَّف بينهم ، إنه عزيز حكيم »[3] .

---

(2) انظر غوستان لوبون : الأسس النفسية لتطور الأمم ص 172 ترجمة أكرم زعيتر مع لفت النظر إلى أنه من كبار الباحثين في تاريخ الحضارات الإنسانية .

(3) انظر سورة الأنفال الآية 63 . وانظر مالك بن نبي شروط النهضة ص 133 .

والمثل البشري الأعلى في تطبيق هذه المنحة الربانية هم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إذ تتولاهم العناية الربانية وحدها بالتربية دون تدخل البشر ، فليس من قبيل العبثية أن يشق ابراهيم طريقه في البحث عن الحقيقة وحيداً ، مخالفاً لأبيه وقومه حتّى اهتدَى إليها بفضل الله ، ورجع إلى قومه وأبيه محاجّاً وهادياً[4] !! وموسَى كذلك وقد نشأ بعيداً عن رعاية الوالدين وعنايتهما[5] .

وكذلك محمد ﷺ لم يكن من قبيل المصادفة أن يولد يتيماً !! بل كان ذلك تقدير العزيز العليم لتتولاه عناية الله وحدها « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهَدَى ، ووجدك عائلاً فأغنى ؟!! »[6] وكما جاء في الحديث : (أدبني ربي فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[7] ، وغيرهم من الأنبياء كذلك ،وهذه الحقيقة يؤكدها القرآن الكريم دوماً ، فليست أخلاق الأنبياء وأفكارهم انعكاساً أو صدىً أو نتيجة تطور حدث في المجتمعات التي بعثوا فيها وأرشدوها ، بل كانت أخلاقهم حدثاً جديداً ومنهجاً طارفاً يدخل المجتمع من خارجه ، وبهذا كان القرآن الكريم يقرع أسماع المشركين من العرب وغيرهم « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »[8] .

---

(4) انظر الآيات في سورة الأنعام 74 — 90 .

(5) انظر الآيات في سورة طه 37 — 50 .

(6) انظر سورة الضحى .

(7) أخرجه ابن السمعاني في أدب الاملاء والاستملاء من حديث ابن مسعود . والعسكري في الامثال من حديث علي بن أبي طالب .

(8) انظر سورة الجمعة الآيات 2 — 4 .

ولهذا فإن محاولات بناء الأخلاق بمعزل عن الدين والمثل الدينية هي محاولات محكوم عليها بالفشل لأنها لا تقدم الفكرة الخلقية الصحيحة ، ولا تُبرز المثل الأعلى الواضح ، ولا تقنع نوازع الفطرة الانسانية ، وقد حاول هذه المحاولة عدد من الفلاسفة والمفكرين[9] .

وألفت النظر هنا إلى حقيقة قرآنية كذلك في المجال الأخلاقي ألا وهي أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم حين كانوا يجسدون المثل الأعلى في أشخاصهم وسلوكهم وسيرتهم ، لم يكونوا يوجهون الأمم والشعوب إلى تقديسهم ، وعدّهم هم مصدر هذا المنهج الأخلاقي ! ! بل كانوا يؤكدون أنهم مظهر إنساني يتجسد فيه المنهج الرباني ، باصطفاء الله عز وجل وعصمته لهم بعد النبوة من التردي في حمأة الخطأ ، وإن صدر منهم فلن يقرّوا عليه . بل كانوا دائماً يهدون إلى أقوم السبل ، وأشرف الأعمال ، ويربطون الناس بالفكرة ، وليس بالشخص « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتلَ انقلبتم على أعقابكم ؟! ومن يَنْقَلِبْ على عقبيه فلن يضرَّ اللهَ شيئا وسيجزي اللَّهُ الشاكرين »[10] .

وكم هي حكمة العليم الخبير حين أنزل في النص القرآني الذي يتلى آناء الليل وأطراف النهار بعض ما وقع للأنبياء مما يجافي ذروة المُثُل ، فعاتبهم الله عز وجل وردَّهم عما وقعوا فيه إلى عين الاستقامة وقمة المثل الأعلَى ! ! وذلك تأكيد على تخليص الناس من الوثنية بكل مظاهرها .

2 — وإن الأمم والشعوب مهما تباعدت وتباينت فإنها جميعها تتفق على كثير من الحقائق الأخلاقية ولن أطيل بذكر نماذج منها وهذا دليل

---

(9) انظر بعض هذه المحاولات ودحضها في الفصل الأول من الكتاب القيم (دستور الأخلاق في القرآن الكريم) للمرحوم الدكتور عبد الله دراز .

(10) انظر سورة آل عمران الآية 144 .

على أن التفكير الأخلاقي قديم مصاحب للانسان سواء كان في حضارة راقية أم حياة بدائية بسيطة ، ولهذا كان البحث قديماً في أصل الشعور الخلقي هو فطري أم مكتسب[11] ؟! وفي المقياس الخلقي ، وفي الخير والشر ، والفضيلة والمسؤولية الأخلاقية ، وقام من مجموع هذه المسائل ما أطلقوا عليه (علم الأخلاق) ، وعرِّف ، بأنه : علم بالفضائل وكيفية اقتنائها ، للتحلي بها وبالرذائل وكيفية توقيها والتخلي عنها[12] .

3 — وقد بعث النبي ﷺ والعرب على جانب من المفاهيم الأخلاقية القريبة من الفطرة ، وقد تسلسل بعضها إليهم من هدي الأنبياء ، وبعضها من مواضعات المجتمع والبيئة ، وجُمّاع هذه الفضائل هي المروءة التي تقوم على دعامتين أساسيتين هما الشجاعة والكرم ، وكانت المروءة — شجاعة وكرماً — مناط فخر العربي ، ومعقد العز لديه ، يضحي في سبيلها بكل شيء ، يقول الدكتور جواد علي : وتتمثل المثل الجاهلية العليا في المروءة ، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية ، ومن المروءة الحلم والصبر ، والعفو عند المقدرة ، وَقِرَى الضيف وإغاثة الملهوف ، ونصرة الجار وحماية الضعيف ...[13]

---

(11) وقف المفكرون المسلمون موقفين ؛ طائفة قالت : شعور فطري ، وطائفة قالت : شعور مكتسب واستدلوا لذلك بنصوص فمن قال هو فطري تمسك بالحديث الذي روي من طريق ابن مسعود : إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وتمسك آخرون بحديث الأشج العصري وهو في هذا الكتاب حين سأل النبي ﷺ عن الحلم والأناة هل هما جبلة أم اكتساب فقال له النبي : بل جبلك الله عليهما فترديده السؤال وتقريره عليه يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي وما هو مكتسب ؛ ولهذا قال القرطبي : الخُلُق جبلة في نوع الانسان وهم في ذلك متفاوتون فمن غلب عليه شيء منها فإن كان محموداً فهو ذاك وإلا فهو مأمور المجاهدة فيه حتّى يصير محمودا ، وكذلك إن كان ضعيفا فيرتاض حتّى يقوى .

(12) انظر طاش كبرى زاده مفتاح السعادة ومصباح السيادة 406/1 ، نشر دار الكتب الحديثة .

(13) انظر دكتور محمد يوسف موسَى ، فلسفة الأخلاق في الاسلام .

والقارئ لشعر العرب الجاهلي يجد الكثير من ذلك في ثناياه . إلا أنّ مما يلاحظه القارئ كذلك أن هذه الفضائل والمكارم عندما كان العربي يتمسك بها ويضحي في سبيلها كان يرمي إلى ارتفاع قدره وانتشار ذكره في قبيلته وغيرها من القبائل . ويخاف العار والاحتقار إن قصَّر أو تهاون في حق هذه المثل .

فلما جاء الاسلام أقرّ كثيراً من الفضائل المعروفة . ولكن أعطاها صبغة جديدة ونظمها تنظيماً جديدا فلم يعد الكرم مثلاً لحسن الأُحدوثة . والشجاعة لإظهار البطولة — ولو كانت على بكر أخينا ! ! ! — بل أصبح القيام بالمكارم والفضائل امتثالاً لأمر الله ورجاء ما عنده « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »[14] . وأصبحت البطولة والشهامة في سبيل الحق والخير دون اعتداء أو ظلم « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم . ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[15] .

كما أن المقياس الخلقي كان في الجاهلية العربية هي العادات والتقاليد التي سنَّها الآباء والأجداد ومعالمها هي سيرة ذوي الأحلام والنهي في القوم . فكان الناشئة يتأثرونها ويعتبرونها ميزاناً يميزون به الرَّشَد من الغيّ . والباطل من الضلال . ويلقِّن الكبار ذلك للأحداث والصغار كما قال قائلهم :

كذلك هدي آبائي قديماً توارثه النِّجار عن النِّجار
وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

فلما جاء الاسلام أصبح المقياس هو القرآن الكريم — الفكرة — وسيرة محمد ﷺ وسلوكه . من حيث هو مطبق للهدي القرآني تمام التطبيق

(14) انظر سورة الدهر الآية 9 .
(15) انظر سورة البقرة الآية 190 .

ولهذا قالت السيدة عائشة عندما سئلت عن أخلاق النبي ﷺ قالت : كان خلقه القرآن[16] .

وسواء كان الحسن والقبح عقليين أو شرعيين فإنه لا مجال لأكثر هذا النزاع العقيم بعد ورود النص .

وكم نعى القرآن الكريم على المقلِّدين الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ! ! وبذلك وضع الأساس الصحيح للتفكير المجرد من التأثر والهوى والبيئة .

4 — إن الإسلام حين يرسم منهاجاً خلقياً للإنسان ويحضه على اتباعه والتزامه إنما يهدف بذلك إلى أمرين اثنين ؛ أولهما تحقيق إنسانية الانسان كاملة ، وثانيهما : ايجاد مجتمع متعاون متحابٍّ بنَّاء .

وفي الأمر الأول : فإنه يأخذ الانسان كما هو دون أن يقسر إرادته أو يكلفها ما لا تطيق فالله عز وجل الذي خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق أودعه نوازع وغرائز متعارضة ، أودعه نوازع الخير بالنفحة العلوية التي تشبه الجانب الملائكي ، وأودعه نوازع الشر وهي جانب الحمأ المسنون الذي يشبه الجانب الحيواني وفي اجتماعهما والتوفيق بينهما يتحقق الابتلاء الانساني على هذه الأرض .

لقد بيَّن القرآن الكريم والنبي ﷺ بما علَّمه الله مواطن الضعف الانساني كلها ؛ والله عز وجل أكَّد ذلك مراراً وتكراراً في كتابه الكريم « وخلق الانسان ضعيفا » فهو فرح فخور تارة ظلوم جهول تارة أخرى ، ملحاح لجوج ، خَصِم جدل ، هلوع جزوع ، عنيد كنود ، محبّ للمال ، مؤثر للدنيا ، كل ذلك وغيره قد بينه القرآن الكريم ، وعالج هذه النوازع

---

(16) أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه ، وأبو داوود وغيرهم .

فيه برفق ويسر ترغيباً وترهيباً للإقلاع عنها والتخلص من آثارها وبنى شخصية إنسانية نظيفة السلوك ، صادقة اللسان ، عفيفة الجوارح ، طاهرة الأردان ، تعيش على وجه الأرض وتنظر إلى ما عند الله والدار الآخرة وتوازن في وجودها الدنيوي بين المادة والروح ! ! كل ذلك في تسامٍ مستمر ومحاولات جهادية دائبة نحو الأفضل ، والله عز وجل يأخذ بيد المقبل عليه ، ويوصله إلى بحبوحة رضاه « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا ، وإنَّ اللَّهَ لمع المحسنين »[17] والنبي ﷺ ذو الخلق العظيم « وإنك لعلى خلق عظيم »[18] كان مثالاً في محاولة الترقي هذه فقد كان يقول في دعائه : (اللهم كما حسنت خلقي فحسّن خلقي[19]). وفي صحيح الامام مسلم في دعاء الافتتاح (واهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت).

مع أن الرسالة الاسلامية كلها أطلق عليها ذلك الأعرابي ببساطته وثاقب فكره دعوة لمكارم الأخلاق[20]

أما الأمر الثاني : فإن الأخلاق الاسلامية ترتكز أساساً إلى النظر للانسان على أنه جزء من الجماعة لا يتجزأ ، وأخلاق الفرد نحو الجماعة ترتكز إلى أمرين اثنين ، أولهما : بذل الفرد وعطاؤه وتضحيته في سبيل الجماعة ، والقيام بكل ما يستطيعه من خير وفائدة نحو المجتمع وثانيهما: إمساكه عن الظلم والاعتداء قولاً وفعلاً ، وعلى هذين المرتكزين تقوم الاخوة الاسلامية التي تبني صفاً واحداً كالبنيان المرصوص يتنازل الواحد

---

(17) انظر سورة العنكبوت الآية 69 .

(18) انظر سورة القلم الآية 4 .

(19) أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه .

(20) قالها أُنيس أخو أبي ذر الغفاري عندما أرسله يستطلع له خبر النبي ﷺ فرجع إليه وقال له : إني رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ! ! أخرج ذلك الامام البخاري في صحيحه وغيره .

فيه لأخيه عن ماله ومتاعه . بل ويطلِّق أحدهم زوجته لتنقضي عدتها ويتزوجها الآخر ! ! إن هذه الأخوة تستبعد فكرة المنافع في التعامل وترسي قاعدة الانسانية وتكريم بني آدم .

وإن الناظر في هذا الكتاب من أوله إلى آخره يجد أن جلَّ النصوص الواردة إن لم نقل كلها أخلاق جماعيّة تهذب الفرد في إطار المجموع . وهذا الأساس يقيم شبكة العلاقات الاجتماعية المتماسكة . التي أنشأت من جماعة متفرقة أعظم جماعة عرفها التاريخ الانساني وذلك في المجتمع الإسلامي الأول مجتمع المهاجرين والأنصار . وبنت هذه الجماعة حضارة خالدة باقية بعد أن انطلقت من أرض قاحلة جرداء ! !

وها نحن اليوم أوشكنا أن نسلخ من عمر أمتنا قرناً مرَّ في التجارب المريرة ، التي لم تثمر غير مرِّ المذاق . فلنحاول أن نغير المسلك ونراجع المفاهيم ، وهذه هي الأمانة الأخلاقية التي حمَّلناها الله عز وجل رؤساءَ ومرؤوسين ، سادةً واتباعا ، فقراء وأغنياء . « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقَى السمع وهو شهيد » .

2

1 — تعريف بالمؤلف : هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مُطَيْر اللخمي — نسبة إلى لخم —[1] الطبراني — نسبة إلى طبريَّة — .

ولد بعكا في صفر سنة 260 هـ وأمه من أهلها ، وحرص عليه أبوه في صباه ، ورحل به وأسمعه وهو صغير ، ثم سافر في طلب العلم ، وجال في طول البلاد الاسلامية وعرضها ، فدخل مدن الشام ، والحرمين واليمن ، ومصر ، والعراق ، والجزيرة الفراتية ، وأصبهان التي استقر بها ستين سنة إلى أن مات فيها ، وقد استمرت رحلته هذه ثلاثين سنة حصَّل فيها ما لم يحصله غيره إذ روى عن كبار المحدثين وتفرد بعلو الاسناد حتى أصبح مسند الدنيا ، وحافظ عصره مع الصدق والأمانة والإتقان ، وطال عمره وشاع ذكره ، وأقبل طلاب الحديث عليه من كل جهة إلى أن توفي عام 360 هـ بعد أن فقد بصره رحمه الله تعالى ودفن بجانب خممة الدّوْسي صاحب رسول الله بأصبهان وبذلك يكون قد عاش قرناً كاملاً في خدمة السنة والعلم والمعرفة .

وقد اتفقوا على توثيقه ، وعدالته ، وكبير مكانته ومعرفته بالحديث والرجال إلى جانب الفقه وغيره إلا ما كان من غمز أبي بكر بن مردويه له ، ونقل ذلك عن أبي علي النيسابوري ، إذ لينه ابن مردويه لكونه غلط في بعض الأحاديث أو نسي ، وقد جمع المحدثون الأحاديث التي غلط فيها أو وهم ونسي فكانت معدودة وقليلة جداً ، وناقشها الحافظ الضياء

---

(1) ولخم قبيلة من العرب قدموا من اليمن إلى بيت المقدس ونزلوا بالمكان الذي ولد فيه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وسمي بعد ذلك ولا يزال « بيت لحم) بالمهملة .

المقدسي في جزء دافع فيه عن هذا الامام وبين فيه من خلال ذلك سعة معرفته وكثرة روايته ، كما أن ابن مردويه قد روَى عنه حُزَماً من العلم ، ولم ينقل عنه تضعيفه في كتبه وكما قيل (كفَى المرء نبلاً أن تعدَّ معايبه) .

ولقد كان ثناء الأئمة عليه وعلى كتبه الكثيرة الممتعة كبيراً ومن هؤلاء الأئمة الذهبي إذ يقول في تذكرة الحفاظ (الحافظ الإمام العلامة الحجة ، بقية الحفاظ ، مسند الدنيا) وقال ابن منده (الطبراني أحد الحفاظ المذكورين) كما قال عنه ابن خلكان (كان حافظ عصره) مع اقرار الجميع له بأنه لا ينكر له التفرد في سعة ما روَى وحدث .

وإليه المنتهَى في كثرة الحديث وعلوه .

2 — مؤلفاته : وخلال هذا العمر المديد انتج الطبراني كتباً كثيرة جداً أحصَى غالبها مع ترجمة له يحي بن منده ، وذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ نقلاً عنه ما يقرب من خمسة وسبعين مؤلفاً ، وأشهر مؤلفاته التي اتفق على أنها كلها نافعة ممتعة معاجمه الثلاثة ؛ الكبير والأوسط ، والصغير ؛ أما المعجم الكبير فقد رتب فيه الصحابة على الحروف باستثناء أبي هريرة إذ أفرده بمصنف خاص . ويشتمل هذا المعجم — بناء على ما ذكره صاحب كشف الظنون — على نحو من خمسة وعشرين ألف حديث ، وقال المناوي في مقدمة فيض القدير : قيل : أورد فيه ستين ألف حديث . وقد رتبه الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي المتوفي 731هـ ترتيباً حسناً ، ولأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن السمعاني (التجبير في المعجم الكبير) .

وأما المعجم الأوسط فهو كما يقول الذهبي في ست مجلدات كبار على معجم شيوخه يأتي فيه عن كل شيخ بما له من الغرائب والعجائب فهو

نظير كتاب الأفراد للدارقطني ، بيَّن فيه فضيلته وسعة روايته ، وكان يقول : هذا الكتاب روحي ، فإنه تعب عليه وفيه كل نفيس وعزيز ومنكر وقال المناوي في مقدمة فيض القدير: أورد فيه نحو ثلاثين ألفاً ، بينما قال في هدية العارفين : إنه يشتمل على نحو اثنين وخمسين ألف حديث .

والمعجم الصغير ذكر فيه عن كل شيخ له حديثاً واحداً مرتباً الشيوخ على حروف المعجم . وكتبه تكون أحياناً جزءاً حديثياً وتصل إلى مجلدات عديدة ضخام ! !

وقد ذكر ابن فارس أحمد بن الحسين اللغوي ـــ كما هو مذكور في تذكرة الحفاظ وطبقات الحنابلة وغيرها ـــ أنه سمع الأستاذ ابن العميد يقول : ما كنت أظن في الدنيا كحلاوة الوزارة التي أنا فيها حتى شاهدت مذاكرة الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي ، فكان الطبراني يغلبه بكثرة حفظه ، وكان أبو بكر يغلبه بفطنته حتى ارتفعت أصواتهما إلى أن قال الجعابي : عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي ، فقال : هات ، فقال : أنا أبو خليفة أنا سليمان بن أيوب وحدث بحديث ، فقال الطبراني : أنا سليمان بن أيوب ، ومني سمعه أبو خليفة فاسمعه مني عالياً ، فخجل الجعابي ، فوددت أن الوزارة لم تكن وكنت أنا الطبراني وفرحت كفرحه[2] .

---

(2) انظر تذكرة الحفاظ ص 1298 . وانظر ترجمة الطبراني في الكتب التالية :
الذهبي : سير النبلاء 173/10 ـــ 177 ، تذكرة الحفاظ ص 912 .
أبو يعلى الحنبلي : طبقات الحنابلة 49/2
ابن كثير : البداية والنهاية 270/11
ابن العماد : شذرات الذهب 30/3
ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان 73/3
الداوودي : طبقات المفسرين 198/1
وتُرجم في كتب أخرى .

3 — نسبة الكتاب إلى مؤلفه : مما بين أيدينا من الأدلة نستطيع أن نطمئن إلى أن هذا الكتاب من تأليف أبي القاسم الطبراني رحمه الله تعالى ، ومن هذه الأدلة :

الاسناد الذي يتصدر الكتاب فهو من رواية الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبي طاهر السِّلفي أوحد زمانه في علم الحديث ، وأعرفهم بقوانين الرواية المولود سنة اثنين وسبعين واربعمائة والمتوفي سنة ست وسبعين وخمسمائة ، يرويه عن الفضل بن علي الحنفي مقرىء اصبهان وقد روى السِّلفي عن أزيد من ستمائة شيخ من أصبهان .

ويرويه الفضل بن علي الأصبهاني عن الحافظ الإمام أبي سعيد محمد بن علي بن عمرو بن مهدي الأصبهاني الحنبلي ، وهو من الرواة عن الطبراني وأقرانه وقد توفي عام 414 هـ في شهر رمضان عن نيف وثمانين عاماً كما يقول الإمام الذهبي فتكون سنّه عند وفاة الطبراني أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد قرأه عليه الفضل بن علي قبل وفاته بأشهر كما يظهر من الاسناد ، وهو من أهل الصدق والديانة والجلالة وله مصنفات منها طبقات الصوفية ، والقضاء ، وبذلك تكون رواية هذا الكتاب واسناده اصبهانيا متصلاً وثيقاً !! .

كما جاء في ثنايا الكتاب : قال أبو القاسم الطبراني — انظر الحديث رقم 90 — والحديث رقم 108 — ومن سلسلة الشيوخ والرواة تأكد لنا ذلك .

— وقد نص على ذكره في مصنفاته يحي بن منده المتقدم ذكره ، كما نقله عن الذهبي في تذكرة الحفاظ وسماه (مكارم الأخلاق)

— وذكره بهذا الاسم له الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري

443/10 ط السلفية .

— وقد نقل منه شارح أربعين الحافظ المنذري في اصطناع المعروف الشيخ عبد الرحمن بن مخلوف الجزائري المتوفي 875 عدة أحاديث[3] ؛ الحديث 91 ، 131 ، 76 من كتابنا هذا وقال شارحه ، أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي عن كل واحد من الأحاديث المتقدمة : رواه الطبراني في مكارم الأخلاق (انظر ص 62 ، 65 ، 73) من الأربعين في اصطناع المعروف بتعليق المرحوم محمد بن تاريت الطنجي وقارن الحديث رقم 116 من كتابنا هذا بالصفحة 54 من الأربعين في اصطناع المعروف كما أن الامام السيوطي نقل منه عدة مواضع من كتابه الجامع الصغير والفتح الكبير ، انظر مثلاً حديث « أفضل الأعمال بعد الايمان التودد إلى الناس » وانظر حديث « إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح برأس اليتيم » .

(3) طبع ضمن مطبوعات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية ، دون تاريخ ويظهر من مقدمة المعلق أنه سنة 1963 .

3

أشهر المؤلفات في هذا الموضوع : ألفت في هذا الباب كتب كثيرة وبعضها يحمل نفس الاسم ، ومن الكتب الأصول فيه إضافة إلى كتابنا هذا :

* — كتاب مكارم الأخلاق لعبد الملك بن حبيب الأندلسي المتوفَّى /239هـ/ وهو من مرويات ابن خير الاشبيلي في فهرسته أنظر ص /290/ .

* — كتاب الأدب المفرد لأمير المؤمنين في الحديث محمد بن اسماعيل البخاري المتوفَّى 256هـ وهو مطبوع مرات عديدة ويعتبر من أنفع وأجمع وأهم الكتب في هذا الباب .

* — مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا المحدِّث الصدوق الثقة أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي مولاهم صاحب التصانيف الكثيرة المتوفى /281 هـ/ وقد ذكره له غير واحد منهم السيوطي في تاريخ الخلفاء ص /58/ وذكر له بروكلمان في تاريخ الأدب العربي 130/3 عدة مخطوطات .

* — كتاب آداب النفوس لمحمد بن جرير الطبري ت/310 هـ/ قال عنه ابن خير في فهرسته (كتاب أعمال الجوارح بالآداب النفيسة والأخلاق الحميدة ، وهو كتاب جليل في معناه) انظر ص /288/ وذكره له التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة ص /23/ وقال عنه شمس الدين الداوودي في طبقات المفسرين 112/2 : (هو من كتبه النفيسة ، لأنه عمله على ما ينوب الإنسان من الفرائض في جميع أعضاء جسده ، فبدأ